واقعة من الممارسة القضائية

وقعت القضية في إحدى الجلسات الأخيرة لمحكمة مقاطعة «ن... سكي».

كان يجلس في قفص الاتهام البرجوازيُّ الصغير من «ن...سكي» سيدور شيلميتسوف، وهو شاب يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، ذو وجه غجريٍّ متغيِّر، وعينَين محتالتَين. اتّهموه بالسطو وتكسير الأبواب، والنصب، والعيش بهيئة شخصٍ آخر. ومما زاد من تعقيد لا قانونية القضية انتحاله لقباً لا يعود له. مَثَّلَ الاتهامَ الرفيقُ المدَّعي العام. اسم هذا الرفيق ليغيون. العلامات والصفات الخاصة التي تمنحه شعبية وأجراً رصيناً لا تعني شيئاً إطلاقاً: إنه كأمثاله. يتكلم من خلال أنفه، ولا ينطق الحرف «ك»، ويمخط كل دقيقة.

يدافع عنه محام ذائع الصيت ومشهور، العالم بأسره يعرف هذا المحامي. تُقتبَس خطبه الرائعة، ولقبه يُلفَظ بوقار... يلعب دوراً مهمّاً في الروايات السيّئة، التي تنتهي بتبرير كامل للبطل وتصفيقٍ من الجمهور. في هذه الروايات، لقبه يثير الرعد والبرق وعناصر أخرى تبعث الإعجاب بالقدْر نفسه.

عندما تمكّن الرفيق المدعي العام من إثبات أنّ شيلميتسوف مذنب ولا يستحق الرأفة، وعندما استوضح وأقنع وقال: «انتهيت»، نهض محامي الدفاع واقفاً. أرهفَ الجميعُ آذانهم. وخيَّم الصمت. طفق المحامي يتكلّم و... وراحت أعصاب جمهور المقاطعة تتراقص! مدّ رقبته الضاربة إلى السمرة، وأمال رأسه إلى جانب واحد، وتألقت عيناه، ورفع يده، وأخذت تنساب حلاوةٌ، لا يمكن تفسيرها، في الآذان المتوترة. بدأ لسانه يلعب على الأعصاب، مثل آلة

«البلالايكا» الموسيقية... بعد أوّل جملتين أو ثلاث، شهق أحد الحضور بصوت عالٍ، وحملوا سيدة شاحبة إلى خارج قاعة المحكمة. بعد ثلاث دقائق، اضطر الرئيس إلى أنْ يمدّ يده إلى الجرس ويرن ثلاث مرات. بدأ كاتب المحكمة، وهو بأنف أحمر يدور في كرسيه وينظر بتهديد إلى الجمهور المفتون. اتسعت حدقات العيون، وشحبت الوجوه من الترقب الملتهب للعبارات اللاحقة، وتمططوا... وما جرى للقلوب؟!

ومع ذلك قال محامي الدفاع:

ـ نحن بشر، أيها السادة المحلَّفون، وسوف نحكم كبشر! قبل مثوله أمامكم، عانى هذا الرجل من حبس أولي مدة ستة أشهر. ستة أشهر، حُرمت الزوجة من زوجها الحبيب، ولم تجف عيون الأطفال من البكاء من فكرة أو عدم وجود أب عزيز بالقرب منهم! أوه، إذا نظرت إلى هؤلاء الأطفال فقط! إنهم جائعون فلا يوجد من يطعمهم، يبكون لأنهم حزينون كثيراً... لكن انظروا! يمدون أيديهم الصغيرة إليكم، ويطلبون منكم إعادة والدهم إليهم! إنهم ليسوا هنا، لكن بميسوركم تخيلهم. (وقفة) استنتاج... جم... لقد حبسوه إلى جانب اللصوص والقتلة... هو! (وقفة) ينبغي فقط تخيل عذابه المعنوي في هذا السجن بعيداً عن زوجته وأولاده، حتى... لكن ماذا عساي أن أقول؟!

تردد نشيج الجمهور... فبدأت تبكي فتاة ببروش كبير على صدرها، وبعدها بدأت جارتها، امرأة عجوز، تبكي بصوت متقطع.

تحدث محامي الدفاع وتحدث... نقل الحقائق وركز أكثر على علم النفس.

ـ إن معرفة روحه تعني معرفة عالم خاص منفصل ومليء بالحركات. لقد درستُ هذا العالم... وبدراسته، أعترفُ أنني درست الإنسان لأول مرة. لقد فهمتُ الشخص... فهمت أن كل حركة في روحه تتحدث عن حقيقة أنه يشرفني أن أرى في موكلي شخصاً مثالياً...

توقف كاتب محضر المحكمة عن التهديد ومد يده في جيبه بحثاً عن منديل. وتم إخراج سيدتين أخريين من القاعة. ترك رئيس المحكمة الجرس وشأنه، ولبس نظارته حتى لا يلاحظوا الدموع التي غمرت عينه اليمنى. دس الجميع أياديهم في جيوبهم على المناديل. المدعي العام، هذا الحجر، هذا الجليد، أكثر الكائنات الحية انعداماً من الحساسية، بدأ يدور بقلق على الكرسي، تضرّج خده، وأنشأ ينظر تحت الطاولة... ولمعت الدموع من خلال نظارته.

وفكر «أتمنى لو يمكنني إسقاط التهمة! فسأتكبد فشلاً ذريعاً! ها؟».

ـ ألقوا نظرة على عينيه! ـ واصل محامي الدفاع (ارتجفت ذقنه، وارتعش صوته، وتجلت روح معذبة). هل يمكن لهاتين العينين الوديعتين والرقيقتين أن تنظرا بلا مبالاة إلى الجريمة؟ أوه لا! هاتان العينان تبكيان! تحت عظم الوجنة المخيف تختفي أعصاب رقيقة! تحت هذا الصدر الخشن القبيح، ينبض قلب بعيد عن الإجرام! وأنتم أيها الناس تجرؤون على القول إنه متَّهم؟!

هنا لم يتحمل المتَّهم نفسه. وحان الوقت ليجهش هو بالبكاء. رمش بعينيه وبكى وتحرك بقلق... وقاطع محامي الدفاع قائلاً:

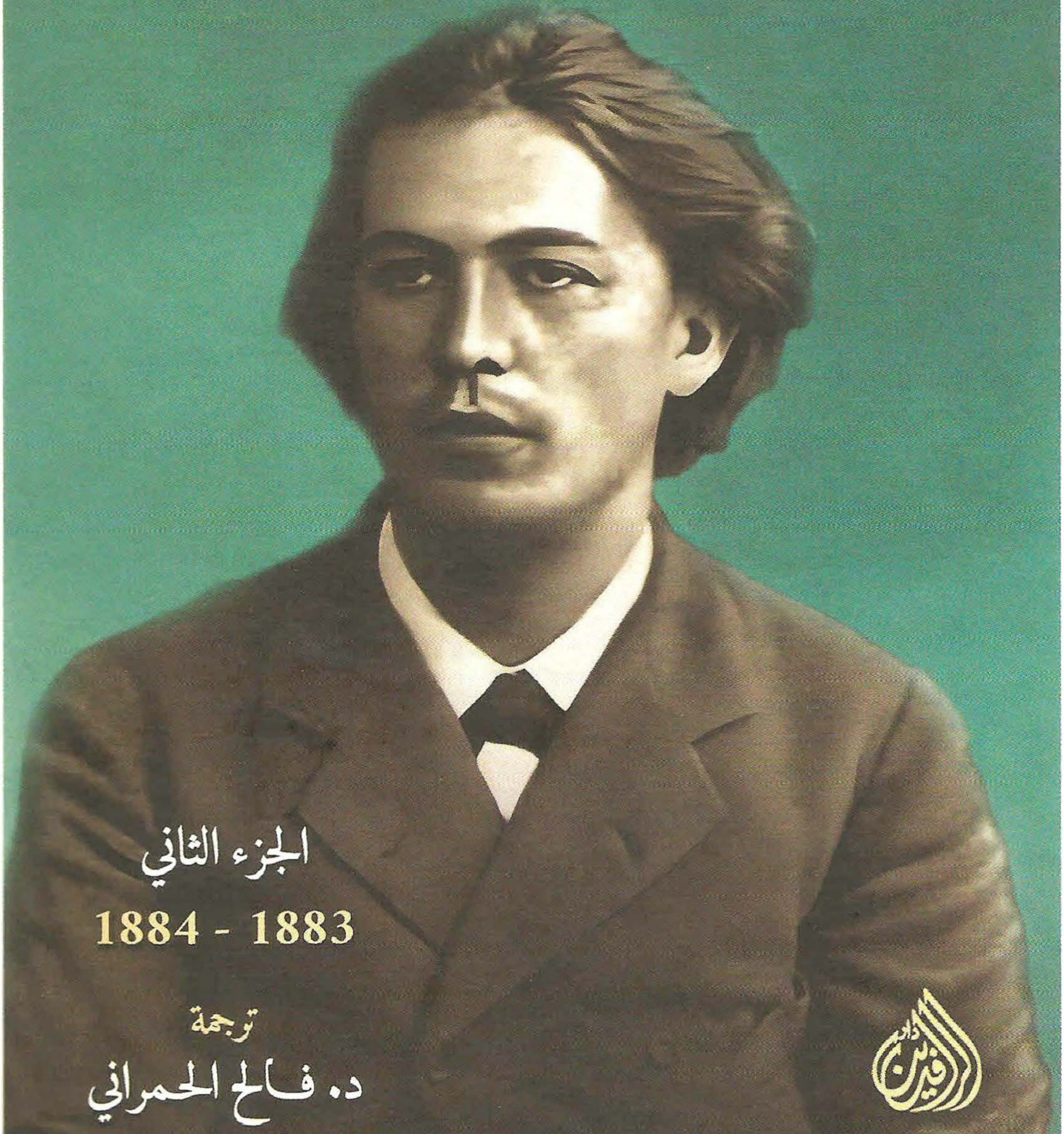
ـ لا مؤاخذة! اعذروني! أنا أعترف بذنبي! سرقتُ وقمتُ بالاحتيال والنصب! أنا رجل ملعون! أخذتُ المال من الصندوق، وأمرتُ أخت زوجي بإخفاء معطف الفرو المسروق... أعترف! بأنّي مذنب بكل شيء!

وروى المُتَّهم كيف كان الأمر. وتمَّت إدانته.

قصص

أنطون بافلوفيتش تشيخوف

الأعمال القصصية الكاملة



الجزء الثاني

1883 - 1884

ترجمة

د. فالح الحمراني